الإصدار السادس
المجلد (2) العدد (3)
25 يوليو 2026

المجلة السعودية للدراسات التربوية والإنسانية

النظريات السوسيولوجية الكبرى والظاهرة الدينية: دراسة مقارنة بين البنائية الوظيفية، والفعل الاجتماعي، والصراع الاجتماعي

أ.م.د. منى عوض باشراحيل
(كلية الآداب – جامعة عدن)

https://doi.org/10.65723/RMSP1801

الملخص
هدفت الدراسة إلى إبراز أهم النظريات السوسيولوجية في علم الاجتماع الديني باستعراض سياقاتها المعرفية، وتحليل أوجه التشابه والاختلاف بينها، وتقييم مكامن القوة الضعف في تفسير الدين والظاهرة الدينية، وبُنيت انطلاقاً من تساؤلات بحثية محددة، سعينا إلى الإجابة عنها باستخدام المناهج العلمية (الوصفي التحليلي، والمقارن، والتاريخي). وتضمنت الدراسة مراجعة للإطارين المفاهيمي والنظري، وتحليلاً لأهم النظريات المفسرة للظاهرة الدينية مع مقارنة نتائجها وتحليل مضامينها، ومن أهم نتائج الدراسة: أن الوظيفية والفعل الاجتماعي، تركزتا في دور الدين في الفرد والمجتمع وأثره؛ ولكن درست كل نظرية المفهومين كُلاً على حدة، وأهملت كليهما دمجهما في إطار تكاملي؛ وكان لنظرية الصراع اتجاهٌ مختلفٌ إلى حد كبير في استخدام الدين أداةً بيد السلطة والطبقات العليا لتحقيق مصالحها، وإعادة تشكيل البنية المجتمعية.
الكلمات المفتاحية: النظريات السوسيولوجيا، علم الاجتماع الديني، النظرية البنائية الوظيفية، نظرية الفعل الاجتماعي، نظرية الصراع الاجتماعي، دراسة مقارنة.

Abstract:
This study aims to highlight the most significant sociological theories in the sociology of religion by reviewing their epistemological contexts, analyzing the similarities and differences between them, and evaluating the points of strength and weakness in their interpretations of religion and the religious phenomenon. The study is built upon specific research questions that it seeks to answer using scientific methods (descriptive-analytical, comparative, and historical). It includes a review of key conceptual and theoretical frameworks and an analysis of the main explanatory theories of religion, comparing their outcomes and examining their implications.
Among the key findings of the study: it focused on both the functionalist theory and the theory of social action regarding the role of religion in society. Although it studied each concept in isolation, it emphasized the importance of synthesizing theories for a more comprehensive understanding. The study also found that conflict theory — particularly in how it uses religion as a tool employed by dominant powers to legitimize their authority and reproduce the social structure — plays a major role in shaping social dynamics.

Keywords: (Sociological Theories, Sociology of religion, functionalist theory, structural-functional theory, theory of social action, conflict theory, comparative study.

المقدمة:

الدين بوصفه المُشكّل لمعظم ثقافات المجتمعات الإنسانية، والوازع الأقوى لضبط الذات وضبط المجتمع، من هذا المنطلق، تعد دراسته ضمن السياق الاجتماعي غاية في الضرورة، وذلك بدراسة الإشكاليات والظواهر الدينية، التي تؤثر -بطريقة أو بأخرى- في تفاعل وعلاقات أفراد المجتمع. فعلم الاجتماع الديني؛ على الرغم من قلة الدراسات فيه، وخاصة العربية، فإنه مجال لا يستهان به وبخاصة في وقتنا المعاصر، وبروز العديد من الظواهر الدينية، التي قد تشوه صورة الدين الحقيقية، أيًا كان ذلك الدين؛ إذ تعكس بعض الظواهر الدينية في ظاهرها مظهرًا من التقرب للإله، وفي كامنها قد تبطن الحفاظ على مصالح معينة، أو بقاء وضع متوازن، أو إحداث تغيير ما في المجتمع. ولتفسير تلك الرؤى والظواهر وتحليلها، كان لا بُد من نظريات تنير الطريق للباحثين؛ لغزو المعترك العلمي، والخروج بنتائج تعالج الخلل، الذي أصاب النسق في البناء الاجتماعي. هذه النظريات التي صاغ فكرها علماء لا يستهان بهم، منهم من تخصص بواحدة من تلك النظريات، ومنهم من ترك بصمته في معظمها مثل عالم الاجتماع -بارسونز- الذي كان له اجتهاد فكري في معظم النظريات على اختلاف توجهاتها، لذا كان له حضور في دراستنا هذه، إذ عرضنا فيها ما تيسر مما تبناه من فكر في النظريات- موضوع الدراسة-.

ولتتبع ذلك، عمدنا القيام بهذه الدراسة؛ وقسمناها على إطارين: المنهجي والنظري؛ حوى الإطار المنهجي ويمثل المبحث الأول - إشكالية الدراسة، وأهميتها، وهدفها، وتساؤلاتها، ومناهجها، أما الإطار النظري -ويمثل المبحث الثاني- فقد عرضنا فيه المفاهيم والدراسات السابقة. ثم المبحث الثالث استعرضنا فيه أبرز النظريات الكبرى والتحديث فيها، وقد ناقشنا النتائج في سوسيولوجيا، محاولين تحليلها ومتابعة سياقاتها المعرفية، منذ ظهورها حتى التطور الذي حدث بفكرها واتجاهاتها.

المبحث الأول: الإطار المنهجي للدراسة:

أولًا: إشكالية الدراسة:

على الرغم من تطور ورسوخ علم الاجتماع بمجالاته كافه، واستيعابه للظواهر الاجتماعية المختلفة، فإن مجال علم الاجتماع الديني ودراسة الدين، ما يزال يدرس على حذر، خاصة في مجتمعاتنا العربية، وما زال علماء هذا العلم يتفاوتون في الطرح والتحليل؛ الأمر الذي جعل نظريات هذا المجال – علم الاجتماع الديني- تتنوع من حيث الأثر والتأثير والتفسير والوظيفة والدور والمكانة، ومن هذا المنطلق تكمن المشكلة في تعدد هذه النظريات واختلاف زوايا النظر إليها، بين من يراها أداة للتماسك الاجتماعي، ومن يراها أداة للسيطرة أو للضبط الاجتماعي، ومن يراها بنية ثقافية مستقلة.

ثانيًا: أهمية الدراسة:

تتحدد أهمية هذه الدراسة في محاولة لإبراز أهم نظريات علم الاجتماع الديني في إطار بحثي واحد، لفهم جذورها والاتجاهات التي درست الدين من منظور اجتماعي. وكذا كإسهام معرفي يسهل للباحثين المهتمين بهذا المجال ،إيجاد إطار معرفي، يبين عرض هذه النظريات للدين والظاهرة الدينية وكيفية تحليلها وتفسيرها.

ثالثًا: أهداف الدراسة:

- التعريف بأبرز نظريات علم الاجتماع الديني.
- سرد السياقات المعرفية للنظريات في دراسة الظاهرة الدينية.
- تحليل أوجه التشابه والاختلاف ومكامن القوة والضعف بين تلك النظريات.

رابعًا: تساؤلات الدراسة:

وضعنا في هذه الدراسة عددًا من التساؤلات على النحو الآتي:

- ما أبرز النظريات التي شكلت علم الاجتماع الديني؟
- ما السياقات المعرفية للنظريات في دراسة الظاهرة الدينية؟
- ما مدى التشابه والاختلاف ومكامن القوة والضعف بين تلك النظريات؟

خامسًا: مناهج الدراسة:

يستعين الباحث بعدد من مناهج تخصصه، وبما يتناسب مع احتياج البحث النظري أو الميداني؛ سعياً إلى تحديد أهداف البحث وخروجه بطريقة علمية مناسبة، وقد اعتمدنا المنهج الوصفي التحليلي لوصف فكر النظريات وتحليلها للمجتمع وسياقات البناءات الاجتماعية المختلفة في إطار النظرة الدينية. كذلك اعتمدنا المنهج التحليلي النقدي المقارن، في محاولة لتحليل واستخلاص الإطار المفاهيمي لكل نظرية، محاولين تتبع النظريات السوسيولوجيا الدينية منذ بدايتها، إلى الوقت الراهن.

المبحث الثاني: الإطار النظري للدراسة:

أولًا: مفاهيم الدراسة:

1- النظرية:

اختلف علماء الاجتماع بشأن مفهوم النظرية من حيث كونها أداة لوصف أو شرح وتحليل الظاهرة، أو توضيح العلاقات السببية لها، والخروج بالنتائج؛ إذ يعرفها رينولدر بأنها: "مصطلح يشير إلى حالات تجريدية تعتبر جزءًا من المعرفة العلمية، سواء أكانت مجموعة من القوانين، أو المسلمات أو أشكال العمليات السببية".(Reynolds,1971: p11) وفي كتاب بناء النظرية الاجتماعية، يعرفها جبس بأنها:" مجموعة من الشروح أو البيانات المرتبطة منطقيًا في شكل تحقيقيات إمبيريقية حول خواص فئات لا نهائية من الوقائع أو الأشياء". (Gibbs,1972: p5).

مما سبق يمكننا تعريف النظرية بأنها: منظومة متسقة من القضايا والمفاهيم، تحلل الظواهر الاجتماعية وتفسرها، لفهم كيفية تفاعل الأفراد والمؤسسات؛ سعيًا للحفاظ على البناء الاجتماعي.

2- علم الاجتماع الديني:

رأى اميل دور كايم، بأن علم الاجتماع الديني هو:" دراسة المعتقدات والممارسات والشعائر الدينية، بوصفها ظواهر دينية؛ أي أنها تنبع من الحياة الجماعية، وتؤدي وظيفة الحفاظ على تماسك المجتمع".(دوركايم، 1915: 47)، وهو بذلك ، يشير إلى " العلاقات المتبادلة بين الدين والمجتمع وصور التفاعل بينهما، حيث إن الدوافع الدينية والأفكار والنظم تؤثر وتتأثر بالقوى الاجتماعية، والتنظيم الاجتماعي".(مّداس، 2003: 181) كذلك يُعرف علم الاجتماع الديني، بأنه:" فرع من فروع علم الاجتماع، يهتم بدراسة الظواهر الدينية في ضوء التغيرات والعلاقات الاجتماعية، ويبحث في دور الدين داخل البناء الاجتماعي، وتأثيره في السلوك الجمعي للأفراد".(عبدالمعطي،1985: 13).

ونُعرف علم الاجتماع الديني إجرائيًا، بأنه: دراسة تفاعل أفراد المجتمع بوصفها قوة اجتماعية، تحافظ على البناء الاجتماعي في إطار ديني محدد، تُشكل ثقافة المجتمع وتُسهم في تحديد وإقامة ضوابطه الاجتماعية أو العكس.

ثانيًا: الدراسات السابقة:

- كتاب الخريجي، عبد الله(1990م) بعنوان: علم الاجتماع الديني، يبدو أن الباحث استخدم المنهجي التاريخي في تتبعه لنشأة الدين وتطوره في المجتمعات مختلفة الأديان والتسلسل التاريخي للأديان السماوية والوضعية، وأعتقد الباحث في ذلك ضرورة دراسة علم الاجتماع الديني كونه يختص بإبراز العلاقات المتشابكة المعقدة بين الدين وبين سائر نظم المجتمع، كما استخدام الباحث المنهج الوصفي التحليلي، لضرورة وصف هذا العلم ومفاهيمه واختلاف دراسة الدين مجردًا عن علم الاجتماع الديني، وتحليل دورة حياة هذا العلم، وتفسير نظرياته للعلاقات الاجتماعية؛ والمدى الذي يؤثر فيه الدين على تفاعل أفراد المجتمع، وتحديد ثقافتهم. كما تناول الاتجاهات في هذا العلم في فرنسا وأمريكا.

- كتاب اكوافيفا وباتشي(2011م) بعنوان: علم الاجتماع الديني: الإشكاليات والسياقات، عكف الكتاب على تفسير مفهوم الدين والظاهرة الدينية وعلم الاجتماع الديني ونشأته وتطوره والمراحل التي مر بها -أي الإطار التاريخي والنقدي- مستعرضاً أهم العلماء الذين درسوا هذا العلم ونظرياته كأوجست كونت ودور كايم، كذلك عرض الكتاب المقدس والدين والتدين، والدين والتنظيم، والدين والمجتمع، والتجربة الدينية والاعتقادات والممارسات الدينية، وغيرها من الموضوعات ذات العلاقة بالدين والظاهرة الدينية، وخرج الكتاب بمجموعة من التفسيرات والاطروحات النظرية التي عرضت إشكاليات علم الاجتماع الديني وسياقاته، ومن أهمها: بات دراسة التجربة الدينية أسهل من ذي قبل بعد

فقدها لحصنها وسندها التقليدي -الكنيسة-، مما يجعلها أيسر في التحليل ،كما وأننا في فترة تاريخية يختبر فيها الناس مزاوجة التجربة الدينية مع أنماط عيشهم العصرية والعقلية، فلا تبدو التجربة الدينية نقيض الحداثة.

- دراسة محمد وقلواز(2019م) بعنوان: النظرية البنائية الوظيفية نحو رؤية جديدة لتفسير الظاهرة الاجتماعية، استخدم الباحثان المنهج الوصفي التحليلي، ووضعا للدراسة تساؤلات عديدة، تتمحور في شأن إن كانت هناك إمكانية لتكييف ومواءمة أسس النظرية مع التحولات المنهجية والموضوعية، التي يشهدها الحقل السوسيولوجي في ظل تحول المجتمعات، مع مراعاة خصوصية الحالة الاجتماعية. وعرضت الدراسة الإطار النظري للبنائية الوظيفية ومفاهيمها ومسلماتها، و منهجية ابن خلدون، ودور كايم وبارسونز ، ثم مكانة الصراع الاجتماعي في المنظور البنائي الوظيفي، وأهم الانتقادات. استنتجا الباحثان أن النظرية الوظيفية، كانت محكومة بظروف وخلفيات موضوعية، تنطبق على حالة المجتمعات الغربية بالتحديد، ومن ثَمّ كان التركيز على مفاهيم محورية، عُدت مفاتيح ترميم التصدعات والاضطرابات الاجتماعية، وقدمت تلك المنظورات في إطار البنيوي الوظيفي مفاهيم ومناهج كتريقات للحد من التفكك المجتمعي. وعلى هذا النحو؛ يعاني علم الاجتماع العربي من تبعية قاتلة للمنظومة المعرفية الغربية، التي تجاوزت الأسس التي ينبغي لعلم الاجتماع العربي أن يركز عليها.

- دراسة سعيدة، وحجاج(2021م)بعنوان: التفسير الاجتماعي للظاهرة الدينية، استعان الباحثان بالمنهج الوصفي التحليلي، ووضعا تساؤلاً للدراسة تمحور حول: كيف يتمكن عالم الاجتماع من مقاربة الظاهرة الدينية؟ عرضا الباحثان أهم الدراسات المتعلقة بالظاهرة الدينية وتطورها وبينا كيف أصبحت موضوعاً للبحث السوسيولوجي. ومن التحليلات التي توصل لها الباحثان في دراستهما: إسهام ماكس فيبر بشكل مباشر في إرساء معالم علم الاجتماع الديني، - عكس الدراسات الأخرى التي كانت أقرب إلى انثروبولوجيا أو النفسية وربما الفلسفية- بينما تنوعت دراساته المقارنة -ماكس فيبر - عن الأديان وشملت أديان الصين والهند واليهودية والمسيحية وغيرها، وقدم نظريته: (إن الأفكار الدينية لها أهمية عليا في أي نسق يتعلق بالفعل الاجتماعي أو التغير الاجتماعي). كذلك جميع النظريات - موضوع دراسته مثل النظرية الوضعية والنظرية الطبيعية وغيرها - مفترضة أو مقترحة لتفسير نشأة الدين، وهي متعارضة بل متناقضة، ولذلك فإنه لا يمكن الركون إلى واحدة منها والاطمئنان إلى أنها كفيلة بإرساء صيغة معقولة تفسر نشأة الدين.

- دراسة منديب، عبدالغني(2021م) بعنوان: الاعتقاد الديني كموضوع للسوسيولوجيا والأنثروبولوجيا – النظرية والمنهج- استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي، وهدفت الدراسة إلى عرض وفحص الرصيد الانتروبولوجي والسوسيولوجي حول الأديان، ووضع التساؤلات مهمة منها: كيف يمكن للباحث الأكاديمي اليوم الاستفادة من هذا الكم الهائل من المفاهيم النظرية والطرائق المنهجية في دراسة المعتقدات الدينية والممارسات المرتبطة بها؟ أيها يحتذى به وأيها يتنكب عنه؟ توصل الباحث إلى نتائج عديدة من أهمها: أنه ليست هناك نظرية سوسيولوجية تتقادم جملة وتفصيلاً؛ إذ تتميز كل واحدة منها باقتراح أو أكثر يحافظ على إجرائيته وبالتالي استمراريته. إذ لم يعد النقاش داخل هذه المقاربة يدور مثلًا حول إمكانية توظيف المعرفة التاريخية أو البنية الاجتماعية، وإنما حول كيف ومتى نستعملها؛ فالباحث السوسيولوجي والأنثروبولوجي هو الذي يمسك بدفة قيادة بحثه، وهو الذي يعرف متى وبأي درجة ينعطف صوب هذا الاتجاه أو ذاك.

- دراسة جمال، حواوسة (2022م) بعنوان: الاتجاهات النظرية في علم الاجتماع الديني-نظرة عامة-، استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي؛ لوصف وتحليل نشأة علم الاجتماع الديني، ومدى تطور الفكر لدراسة الظاهرة الدينية. وقد هدفت الدراسة إلى محاولة التعرف إلى أهم الآراء والإسهامات التي قام بها علماء الاجتماع والانثروبولوجيا، لإثراء حقل علم الاجتماع الديني، وتفسير النشأة الأولى للدين. خلصت خاتمة البحث إلى: أنه مع المجهودات التي بُذلت في علم الاجتماع الديني لتحريرية من الذاتية والانفعالية والعاطفية، فإن أغلب الاتجاهات النظرية في حقل علم الاجتماع الديني، يشوبها القصور؛ إذ ارجعت نشأة الدين إلى حالات نفسية – باثولوجية، أي مرضية أو سوية، وأنكرت جوهر الوجود وهو الله -عّز وجّل-، كما أهملت تلك الدراسات جوانب عديدة في دراسة الظاهرة الدينية؛ مثل: المحيط

الجغرافي والتركيب الجسمي، مما يجعلنا أمام آراء تخمينية افتراضية، تفتقر للطابع العلمي الشمولي، الذي يمكن الاحتياج لنتائجه.

- دراسة اللوز، أنيس(2024م) بعنوان: قراءة في المقاربات النظرية الكلاسيكية في علم الاجتماع الظاهرة الدينية: أوغيست كونت، دور كايم، ماكس فيبر، كارل ماركس، استخدم الباحث في هذه الدراسة، المنهج الوصفي التحليلي، ووضع في إشكالية دراسته سؤالًا: كيف نستطيع أن نتخذ الدين، بوصفه ظاهرة متعلقة بالمقدس، موضوعًا للدراسة العلمية؟ وانطلق منه لدراسة تفسير علماء الاجتماع للدين، وللظاهرة الدينية ، ومن هم موضوع دراسته، وما قدمه كل عالم، وأوجه التشابه والاختلاف. وقد خلص الباحث في الخاتمة إلى أن النظريات الكلاسيكية، تقدم رؤى متعددة، لتحليل وفهم الدين، بوصفه ظاهرة اجتماعية، وفهمًاًا متنوع لدور الدين في المجتمع، وقد تفرعت عن هذه النظريات مدارس ومساهمات.

التعقيب على الدراسات السابقة:

بيّنت مراجعة الدراسات السابقة، اهتمامًا متنامًا بدراسة الدين، والظواهر الدينية المرتبطة به في سياقات اجتماعية متعددة،؛ سواء على المستوى العالمي أو العربي، وقد قدم عدد منها تحليلات سوسيولوجية جادة كدراسة (اكوافيفا وبتشي:2011م)، التي عرضت الفكر السوسيولوجي الديني والتسلسل التاريخي له، مع التركيز على البعد التفسيري والتفاعلي للدين، وبخاصة فيما يتعلق بعلاقة الدين بالبنية الاجتماعية وتفاعلات الأفراد. ومع ذلك، تُظهر هذه الدراسات السابقة تباينًا في زوايا المعالجة؛ فبعضها ركز على البعد التاريخي أو التفسيري للدين، وافتقرت دراسات أخرى إلى المقارنة الدقيقة بين فكر هذه النظريات في ضوء الظاهرة الدينية. وظهر تشابه بين نتائج دراستنا ونتائج بعض الدراسات السابقة كدراسة (اللوز، أنيس:2024م)، التي أظهرت تميزًا في تحليلها لدور الرموز في تكوين المعنى الديني، لكنها لم تتعرض لجوانب القوة والضعف في كل نظرية. ومن ثم، فإن هذا التعقيب يكشف الحاجة إلى عرض أكثر تكاملًا، يجمع بين البعد البنيوي والمعنوي في فهم الظاهرة الدينية.

المبحث الثالثً: أبرز نظريات علم الاجتماع الديني:

يعرض هذا المبحث النظريات الرئيسة، التي درست الظواهر الدينية في سياقات اجتماعية، منذ نشأتها في القرن التاسع عشر، والتطورات التي رافقت ظهور أفكار حديثة ومحدثة فيها، في تقسيم ثلاثي لكل نظرية منذ النشأة والمرحلة الوسطى، ثم التحديث في طرح تلك النظريات ونهجها.

1: نهج ابن خلدون في البنائية الوظيفية عن الدين:

على الرغم من اعترافنا واعتزازنا كون ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع بوصفه عِلمًا يدرس العمران البشري، فإن علماء العرب تقاعسوا عن مواصلة العمل في هذا الإنجاز العلمي الجبار، واعتمدوا على الوارد من الغرب؛ حتى غاب عن السطح العلمي والأكاديمي والتعليمي علم اجتماع عربي، يحاكي ثقافة العرب وحياتهم. فمع عدم استخدام ابن خلدون لمفهوم النظرية، كما هو معروف منذ البدء؛ فإننا نجد أنه قدم أنموذجًا تحليليًا مفسرًا ما يربط الدين بالعصبية والعمران، والسياسة. وبما أنه عرض الظاهرة الدينية بوصفها ظاهرة اجتماعية وتاريخية، وليس فقط وصفًا غيبيًا فقط؛ لذا يستحق أن يكون المؤسس الأول لعلم الاجتماع الديني.

وقد كتب ابن خلدون مفسرًا الظواهر الاجتماعية، ومنها الدينية في سياق بنائي وظيفي قبل تأسيس هذه النظرية، " وتظهر البنائية الوظيفية في المنهج الخلدوني من خلال تأكيده على ضرورات الاجتماع البشري، وترقية جهود الأفراد والتعاون بين الجماعات، والتكامل في منهج ابن خلدون يوضحه من توافر الضرورات البشرية إلى أكثر من عملية، ويقدم في ذلك الكثير من الأمثلة الاجتماعية لشرح الوظيفة التكاملية."(عبدالمعطي،1981: 56)

ويبدو انعكاس الدين الإسلامي وتأثيره في نهج ابن خلدون واضحًا عند تفكيكه لسلطة الدين وضرورتها في استقرار المجتمع؛ فهو ينظر إلى الوازع الداخلي للإنسان في منعه من الوقوع بالأخطاء، نابع من قوة وسلطة عليا، يؤمن بها؛ وبذلك ينقاد إلى تعليماتها، ويخاف عقوبتها. فحول العمران البشري والمُلك ووجوب النبوات قال ابن خلدون:" ثم أن هذا الاجتماع، إذا حصل للبشر كما قررناه وتم عُمران العالم بهم، فلا بد من وازع، يدفع بعضهم عن بعض. لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم. وليست آلة السلاح التي جُعلت دافعة لعدوان الحيوانات العُجم عنها كافية في دفع

العدوان عنهم؛ لأنها موجودة لجميعهم. فلا بد من شيء آخر، يدفع عدوان بعضهم عن بعض. ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم وإلهاماتهم. فيكون ذلك الوازع واحدًا منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة، حتى لا يصل أحد غيره بعدوان؛ وهذا هو معنى المُلك. وقد تبين لك بهذا، أنه خاصة للإنسان طبيعية ولابد لهم منها. وقد يوجد في بعض الحيوانات العُجم، على ما ذكره الحكماء؛ كما في النحل والجراد، لما استُقرئ فيها الحُكم والانقياد والاتباع لرئيس من أشخاصها، متميز عنهم في خلقه وجثمانه؛ إلا أن ذلك موجود لغير الإنسان بمقتضى الفطرة والهداية لا بمقتضى الفكرة والسياسة: (ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ)[سورة طه: الآية 50] .(ابن خلدون، 2003: 47)

وفي سياق متصل يفسر ابن خلدون رأي الفلاسفة بالنبوة واعتقادهم حول وجود النبوة بمجتمع معين من عدمها، " وقد تزيد الفلاسفة على هذا البرهان؛ إذ يحاولون إثبات النبوة بالدليل العقلي، وأنها خاصة طبيعية للإنسان، فيقررون هذا البرهان إلى غايته وأنه لابد للبشر من الحكم الوازع. ثم يقولون بعد ذلك: وذلك الحُكم يكون بشرع مفروض من عند الله، يأتي به واحد من البشر؛ وأنه لا بُد أن يكون متميزًا عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته؛ ليقع التسليم له والقبول منه، حتى يُحكم فيهم وعليهم من غير إنكارٍ ولا تزييف. وهذه القضية للحكماء غير برهانية كما تراه؛ إذ الوجود وحياة البشر قد تتم من دون ذلك، بما يفرضه الحاكم لنفسه، أو بالعصبية التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادّته. فأهل الكتاب والمُتبعون للأنبياء، قليلون بالنسبة إلى المجوس، الذين ليس لهم كتاب، فإنهم أكثر أهل العالم، ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والآثار فضلاً عن الحياة؛ وكذلك هي لهم لهذا العهد في الأقاليم المنحرفة في الشمال والجنوب، وبهذا يتبين لك غلطهم في وجوب النبوات، وأنه ليس بعقلي، وإنما مدركه الشرع كما هو مذهب السلف من الأمة.".(ابن خلدون، 2003: 48)

هكذا بينّ ابن خلدون قدرة الأنبياء على ضبط سير الحياة الاجتماعية والعلاقات بما أنزله الله في كتابه، فتكون الغلبة في المجتمعات المسلمة للثقافة الدينية، التي تحاكي التفاعل بين أفراد المجتمع وتضبط التعاملات والإشكاليات للوصول إلى توازن يرضي الجميع. ولكنه كذلك، يعترف بدور السلطة والحاكم الجبار في القبض على زمام الأمور، وتسيير المجتمع على وفق ما لما يراه مناسبًا وصحيحًا.

2: النظريات التي عرضت الدين و الظاهرة الدينية:

يمكننا الولوج إلى هذه النظريات عبر عرض جهود علماء الاجتماع الأوائل للظواهر الدينية، وتأثير الدين في الحياة الاجتماعية. وسنتدرج تاريخيًا في بسط الحديث عنها، على النحو الآتي:

أ- النظرية البنائية الوظيفية:

تستند هذه النظرية إلى مفهومي البناء والوظيفة في تفكيكها لبنية المجتمع والوظائف التي يقوم بها، وفي تحليلها للظواهر الاجتماعية، وترابط الوظائف المتولدة عن ذلك؛ إذ يشير المفهوم الأول أو العنصر الذي يتكون منه أي نظام أو وحدة أو بناء اجتماعي. أما الوظيفية، فيشير بها إلى الدور والإسهام الذي يقدمه كل جزء ضمن البناء (الحوات،1998: 96) .فالظاهرة الاجتماعية، تنشأ في إطار البناء الاجتماعي، وتحمل في طياتها وظائف، تتمثل بعدد من الأدوار، وبذلك لا يمكن فصل البناء عن الوظيفة في دراسة أي ظاهرة اجتماعية.

وفي تحليل الظاهرة الدينية، تركز هذه النظرية على قوة الدين في حفظ التماسك الاجتماعي، وتعزيز القيم والضبط الاجتماعي. وتربط هذه النظرية بين الظواهر الاجتماعية ربطًا واقعيًا ماديًا، وربطًا رمزيًا وقيميًا معنويًا، إذ تتأثر حركة المجتمع نحو ظاهرة معينة، بحركة نحو ظاهرة أخرى على الأرض نفسها؛ فمثالًا على ذلك قد يحتاج أفراد المجتمع إلى السياحة والرفاهية في أوقات معينة، فترتفع حركة البيع والشراء والتسوق في تلك المناطق والمدن، وكذا مواسم الحج وما يتبعه من نشاط تسوق داخلي، ثم في البلد المقرر بها الحج لأي ديانة كانت. كما يؤثر الدين في تقديم الخدمات للحجيج في بعض المواد الغذائية على سبيل المثال، فيمنع استهلاك صنف معين ويباح نوع آخر؛ لذا ترتبط الأنظمة ببعضها البعض، وتتساند للحفاظ على البناء الاجتماعي والقيام بوظائفه بطريقة سليمة. كذلك تؤمن هذه النظرية -أيضاً- بالتوازن التي تقوم عليه العلاقات الاجتماعية، النابع من القيم والمعايير الاجتماعية والدينية، ودور الدين كمرشد ومهذب للحياة الاجتماعية. وهي بذلك تدرس المؤسسات وأدوارها في تحليل الرموز والقيم والوظائف النفسية والاجتماعية للمعتقدات والسلوكيات. ولدراسة هذه النظرية بتعمق وبخاصة بالمجال الديني، لا بُد من المرور بالبدايات بمؤسسها، وبالعلماء الذين وضعوا لها أعمدتها، ومن بنوها وطوروها فيما بعد.

وبالنظر إلى إسهامات **إميل دور كايم** (1858-1917م)، وهو عالم الاجتماع الفرنس، ومؤسس علم الاجتماع الديني كعلم مستقل؛ قدم نظرية وظيفية عنه؛ إذ عدّ الدين ظاهرة اجتماعية، تعبر عن وعي جمعي. و " تنهل نظريته سياقها العام من الدين، وقد أشير إليه ضمن مؤلفة – تقسيم العمل الاجتماعي- وتتلخص الفكرة الأساسية في أن النظام في المجتمعات الديمقراطية الحديثة، يتأسس على مبدأ التضامن، ويستند المجتمع في توازنه – في رأي دور كايم-، على قواعد، وعلى نواميس، وعلى قيم، توحي إلى الوعي باللحمة الحيوية، التي تهدف إلى الاجتذاب الفوضي بين الأفراد. ومن اليسير معانقة ذلك الأثر في المجتمع الذي يهمن فيه ما يسميه دور كايم بالتضامن الميكانيكي، فالأفراد منخرطون في تكتلات اجتماعية منتظمة، تجنح نحو الانسجام في سلوكياتها-، ونحو التشارك الإلزامي في قيم جامعة"(اكوافيفا وباتشي،2011: 33-34). بذلك أكد دور كايم على التوازن في تنظيم الحياة الاجتماعية، والذي بدوره يقوم على الإجماع نحو ثقافة مشتركة مقدسة -دينية- تُحترم تعاليمها، وتكون جامعة في اتباع أفراد المجتمع لها والرجوع إليها في حال حدوث خلل في النسق الاجتماعي.

و في كتابه (الأشكال الأولية للحياة الدينية)(1912م)، رأى أن " فكرة الانطلاق، تتلخص في دراسة كيفية عمل الدين في المجتمعات البدائية؛ لإدراك سبل عمل المجتمع الإنساني عامة. في اللحظة التي يرنو فيها إلى عرض صور مستقلة عن وعي الأفراد الذين يتكون منهم، نجده يدرس الدين كمثال يعبر عن كيفية تشكله وتبلوره في الزمن، يتجاوز فيه الوعي الاجتماعي الأفراد، والصورة التي يملكها المجتمع عن نفسه، ومن هذا الباب يسهم الدين في بناء الوعي الجمعي وفي الحفاظ عليه"(المرجع ذاته : 37) تبدو العملية متداخلة ومتبادلة التأثير؛ فكما يحافظ أفراد المجتمع على الدين، سواء بممارسه طقوسه أو الالتزام بتعاليمه، يعمل الدين على بقاء المجتمع متماسكًا ومتوازنًا بالإجماع عليه.

وأكد دور كايم، أن الإنسان المؤمن، حينما يكون قريبًا من ربه " يكون لديه إيمان بالحياة، وحماسة للحياة، وهي حماسة لا يجربها في الأوقات العادية، حيث يكون لديه قوة أكبر لمواجهة مشاق الوجود، ويكون قادرًا على القيام بأمور عظيمة، ويبرهن عليها بسلوكه"(Durkheim,{1912}1968:5)، وعبر الطقوس الجماعية وما يصحبها من انفعالات، تخلق لهم القوة والحماسة؛ " يمكن القول أنها الإله، الذي تعبده كل ديانة طوطمية، إلا أنه إلالة شخصي، لا اسم له، محايث للعالم، منتشر في عدد لا متناه من الأشياء"(المرجع ذاته:269). لقد بيّن- هنا- دور كايم مدى تأثير القوة الغيبية على الفرد، ومدى تمكنه من الوثوق بقدرتها لبلوغ هدفه المنشود؛ ويزداد هذا التأثير فعالية حينما يتقرب الفرد أو الجماعة من الإله بالصلاة أو الرقصات والطقوس التي تدفعه إلى مواجهة الحياة ومشكلاتها وقسوتها بقوة أكبر مستعينة بتلك الطاقة التي تشبع بها. وبذلك وجد دور كايم " الدين عنصرًا مهمًا في تعزيز التماسك الاجتماعي بفضل الطقوس التي تعزز الانتماء والتضامن، أسهمت مقاربته عن الدين في فهم كيف يمكن للدين أن يؤثر على في المجتمعات، وتوجيه السلوك الاجتماعي، وتعزيز القيم المشتركة بين أفراد المجتمع، إلا أن التركيز على الجانب الوظيفي للدين في تعزيز الوحدة الاجتماعية، يتجاهل الصراعات التي قد يقدمها الدين بين الطوائف والتعصب الذي يصل إلى الراديكالية والعنف والانقسامات".(اللوز،2024 :134).

كذلك يشكل الدين بوظائفه الظاهرة وطقوسه الجذابة والمريحة لمّتبعيه، وجهًا مشرقًا لواحدية المجتمع وتماسكه، وقد يؤدي وظائف صراعية حينما يظهر للسطح الاختلافات البينية بين أبناء الدين الواحد في ممارسة طقوسهم أو فرض قناعاتهم وفق المذاهب والشيع المنتمين إليها.

وفي سياق زمني بعد أميل دور كايم جاء الفريد راد كليف بروان (1881-1955)، العالم الإنجليزي الانثروبولوجي وعالم الاجتماع أيضًا، الذي ظهر تأثره الكبير بأفكار دور كايم في الوظيفية ومنهجها وتحليل البنى الاجتماعية؛ فالمجتمع من وجهة نظره، يشبه الكائن الحي في تكوينه العضوي من أعضاء متعدّدين، تتشارك بأداء وظائف معينة، وتتكامل للحفاظ على حياته؛ بالمقابل لأجل بقاء واستقرار المجتمع وتماسكه، تتشارك إلى التكامل مختلف النظم الاجتماعية والعادات والتقاليد لأداء دور وظيفي محدد. كذلك وظف أفكاره في تحليل المجتمعات القبلية، وقد فرق براون بين البناء الاجتماعي والوظيفة الاجتماعية. وقد أورد براون -في هذا الصدد- " أن أية محاولة لاستخدام مفهوم الوظيفة في العلم الاجتماعي، تتضمن الدعوى بأن هناك شروطًا ضرورية لوجود المجتمعات البشرية، مثلما توجد شروط ضرورية لوجود الكائنات العضوية الحيوانية، وإن بالإمكان اكتشاف هذه الشروط عن طريق البحث العلمي الملائم"(Brown،1952 :178).

وأورد بروان -أيضًا- " ووظيفة أي نشاط متكرر مثل طقس جنائزي، هي الدور الذي يوديه في الحياة الاجتماعية ككل، وبالتالي المساهمة التي يقدمها للحفاظ على الاستمرارية البنيوية".(المرجع ذاته:180)، و" وظيفة أي عادة

اجتماعية جزئية، هي الدور الذي تؤديه هذه العادة في الحياة الاجتماعية على أساس أن لكل نظام نسقًا اجتماعيًا كليًا، وتكون لأي ظاهرة دينية وظيفتها في النسق الديني من ناحية، وفي النسق الاجتماعي الكلي من ناحية أخرى، على اعتبار أن لكل نظام وظيفة معينة، يقوم بها في البناء الاجتماعي، الذي يتألف من أفراد وجماعات، يرتبطون بعلاقات بعضهم مع البعض الآخر في وحدة متماسكة. وإن قيام البناء الاجتماعي نفسه واستقراره، يرجع إلى فاعلية النسق والنظم التي تحافظ على كيانه. وتبعًا لهذا الرأي، يكون للنسق الاجتماعي الديني وحدة وظيفية، بمعنى أنه ليس مجرد تجمع أو حشد، وإنما هو كائن عضوي متكامل، وحين نتكلم عن التكامل الاجتماعي الخاص بالنظام الديني والهيئات التي تمثله، فإننا نفترض من الأساس وجود رابطة تربط الأفراد والجماعات والتنظيمات الدينية؛ وتجمعهم في بناءات وتنظيمات تتمتع بدرجة معينة من الثبات والاستقرار والفاعلية، وتنظّمه أنساق ثابتة، تتكون من جماعات تحدد هؤلاء الأفراد بعضهم مع بعض، وتحدد علاقاتهم بغيرهم من الجماعات الأخرى، كما أنها تحدد الأوضاع التي تسمح بتكيفهم مع البيئة الاجتماعية العامة؛ وبالتكيف الداخلي بين الأفراد وبين الجماعات المكونة لهذا النسق؛ حتى يمكن قيام فاعليات واهتمامات اجتماعية ودينية مترابطة متماسكة، ويتطلب استخدام المنهج الوظيفي التكاملي دراسة البناء الديني كما يتمثل في التنظيمات الدينية والفّرق والاتباع، ويقضى أيضًا بدراسة الروابط والعلاقات، التي تحدد الصلات بين الأفراد، الذين يضمهم هذا البناء، وتتمثل تلك الصلات في العناصر الروحية والمادية، التي تعد مزيجًا مختلفًا من العادات والطقوس والمراسيم والصلوات والفروض والأضاحي والقرابين والهدى"(الخريخي،1990 : 68).

وعن الفكر الحديث في النظرية الوظيفية فقد عُدّلت المفاهيم والمسلمات، التي كانت تؤمن بها النظرية إيمانًا مطلقًا، إذ عَدَّ " جيفري أن التطور الاجتماعي، قابل لكل الاحتمالات؛ نتيجة لعوامل عدة متغيرة، والوظيفة الجديدة تقدم وصفًا عامًا للعلاقات المتبادلة، وتستخدم فكرة التوازن بصفتها نقطة مرجعية، وليس بوصفها شيئًا موجودًا بالواقع؛ فالتوازن هو -دائمًا- توازن متحرك"(كريب،1999: 48).

وفي السياق ذاته كتب روبرت كينغ ميرتون (1910- 2003) عالم الاجتماع المعاصر، عن الدين كظاهرة تحمل وظائف كامنة، ووجد ميرتون الدين مؤسسة اجتماعية، تؤدي وظائف ظاهرة، تتمثل لطقوس ووظائف كامنة، تسعى لتماسك المجتمع؛ فـ " قد تُنجز الطقوس الدينية وظيفة كامنة، تتمثل في تعزيز هوية الجماعة، من خلال توفير مناسبة دورية، يجتمع فيها أعضاء الجماعة المتفرقون؛ للمشاركة في نشاط مشترك، كما بين دور كايم وغيره منذ زمن بعيد، فإن هذه الطقوس تُعد وسيلة للتعبير الجماعي عن المشاعر التي عند تحليلها بشكل أعمق، تُعد مصدرًا أساسيًا لتماسك الجماعة، ومن خلال التطبيق المنهجي لمفهوم الوظيفة الكامنة، فإنه قد يُكتشف أن سلوكًا قد يبدو غير عقلاني، قد يكون في الواقع ذا وظيفة إيجابية للجماعة"(Merton,1957:64).

وبشيء من التدقيق والتفصيل حول ذلك، يكتب ميرتون ما نصّه: " يمتد مفهوم الوظيفة الكامنة ليشمل انتباه الباحث إلى أبعد من السؤال بشأن ما إذا كان السلوك يحقق غايته المعلنة، فعند تجاهل أغراضه الظاهرة مؤقتًا، يتم توجيه الانتباه إلى مجموعة أخرى من النتائج؛ تلك التي تتعلق – مثلا- بشخصيات أفراد قبائل الهوبي المشاركين في الطقس وباستمرار ودوام الجماعة الأكبر، قد تُنجز الطقوس وظيفة كامنة، تتمثل في تعزيز هوية الجماعة، من خلال توفير مناسبة دورية، يجتمع فيها أعضاء الجماعة المتفرقون للمشاركة في نشاط مشترك. ومن خلال التطبيق المنهجي لمفهوم الوظيفة الكامنة، يمتد الباحث الاجتماعي في تحقيقه إلى تلك الاتجاهات، التي تعد الأكثر إفادة لتطوير النظرية، يفحص الطقس الاجتماعي المألوف؛ ليحدد الوظائف الكامنة، التي غالبًا ما تكون غير معترف بها، إلى جانب الوظائف الظاهرة"(المرجع ذاته: 118). هذه الطقوس الدينية- وإن حملت في ظاهرها مظاهر غرائبية أحيانًا- فهي تخدم وظائف خفية؛ كالانضباط والتواصل الاجتماعي، والأهم ضمان استمرارية الجماعة والحفاظ على هويتها، مما يجعلها ضامنًا لاستقرار النظام الاجتماعي، عبر تأكيد القيم المشتركة، **و"** هي وما إليها تعتبر من دعائم الترابط الاجتماعي في تلك الأشكال الاجتماعية؛ إذ إنها تعد عاملًا إيجابيًا لتماسك أفراد الجماعة؛ فهي بمثابة الوسيط بين الفرد ومجتمعه وآلهته. فضلًا عن أنها تقوّي التفاف الأفراد وتمركزهم حول بؤرة تقاليدهم وعرضهم وعاداتهم وتراثهم الثقافي. فهم لا ينظرون إلى القيم والمعايير والمواقف إلا من وجهة نظرهم الجماعية الخاصة بهم، والمميزة لهم عن غيرهم من الجماعات الأخرى. لذا فإن كل ظاهرة تخالف مألوفهم يقاومونها بشدة وبعنف، باعتبارها خطرًا يهدد كيانهم الجماعي؛ وذلك بحكم تضامنهم وترابطهم الآلي" (الخشاب، 1970: 481.

ب- نظرية الفعل الاجتماعي:

تركز هذه النظرية في تحليل الدين على قدرته في التأثير في البنية الاقتصادية والاجتماعية؛ إذ يعد الدين قوة دافعة للفعل الاجتماعي، وله تأثير في تشكيل اقتصاد المجتمع.

ماكس فيبر(1864 -1920م): عالم الاجتماع ألماني ، صاحب كتاب –(**الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية)** 1905م-، تخلق الفكر الفيبري عن الدين في المجتمع؛ متأثرًا بحركة الإصلاح المسيحي في أوروبا في القرن السادس عشر، الرافضة بعض ممارسات الكنيسة الكاثولوكية، التي تحولت إلى تقاليد وبخاصة بيع صكوك الغفران، وركزت البروتستانتية على الإنجيل بوصفه مصدرًا وحيدًا للسلطة الدينية، وعلى الخلاص بالإيمان وحده. والدين عند فيبر " هو نوع خاص من أشكال العمل الجمعي أو الطائفي، يستوجب دراسة الظروف الخاصة به والنتائج التي يفضي إليها، بداية، لا يتناول فيبر الأديان باعتبارها نظمًا من المعتقدات؛ إنما ينظر إليها باعتبارها أنساقًا لتنظيم الحياة ومنظومات استطاعت أن توحّد من حولها جموعًا كبيرة من المؤمنين بشكل خاص"(هيرفيه و يلام،2005: 92). كذلك آمن بقوة الكاريزما سواء كانت " غيبية أو فوق غيبية، تتجسد في بعض مظاهر الطبيعة، أو لدى أفراد الجنس البشري، فتري إلى لحمه سريان التيار الكهربائي كمنحة أو كعطيه سحرية"(عبدالباقي، 1981: 109-110). وفي عرضه " لأنماط الأخلاقيات الاقتصادية وصفها نتاجاً دينيًا عند دراسة آثار كل دين في التنظيم الاقتصادي، والحياة الاجتماعية لكل الشعوب، التي تعتنق هذه الديانات أو تلك" (الخشاب،1987: 25)، " ومن خلال الدراسة المهمة، والتي كرس فيها جهده لفحص العلاقة بين روح الرأسمالية والأخلاقيات البروتستانتية، لم يكن يهتم فقط بإثبات العلاقة بين الدين والاقتصاد؛ بل كان يهدف إلى التعرف على التأثير المتبادل بين الظاهرتين، على أن فيبر لم يعالج الجوانب المختلفة للدين، ويقصد بها – ما يؤكد عليه الدين من قيم اقتصادية-، وهكذا يأخذ فيبر الأخلاقيات الاقتصادية باعتبارها نتاجًا دينيًا"(محمد،1982: 236-237)، وبذلك ربط فيبر " بين العمل الدنيوي والديني، عندما أشار إلى أن نشاط الإنسان الدنيوي، يكون بمنزلة النشاط الأسمى أخلاقيًا الذي من الممكن أن يمارسه الإنسان، ويصبح هذا النشاط الدينوي له دلالة دينية، وأن العمل الدؤوب، وتحقيق هذا النشاط في الأعمال الدنيوية، هما طريق لكسب رضا الله"(كوثراني،1999: 149-154).

وفي سياق متصل، عند دراسة فيبر لـ " المقارنة بين المسيحية والديانات الأخرى، وبخاصة بين المسيحية والإسلام، تحددت هذه الآراء في وصفه للدين المسيحي، بأنه دين الخلاص والصلاح والتقوى، أما الإسلام فوصفه بأنه دين حرب يقوم على القوة العسكرية، التي يستخدمها زعماء الدين الإسلامي؛ بقصد تعديل الأنماط السلوكية المستمدة من العادات، والأعراف والتقاليد البالية، التي كانت سائدة في العصر الجاهلي، إلا أنه أكد أهمية الدور الذي أداه الإسلام في تغيير نمط الحياة في العصر الجاهلي، ومنها الاقتصادي والاجتماعي، إذ ألزم المسلمين بأركان الدين الإسلامي؛ الصلاة والزكاة...ألخ.. لذلك اعتبر أن دعوة النبي اكتسبت أهمية اجتماعية خاصة، بعد تقبلها شيوخ القبائل البدوية، وعدّلوها على ضوء أسلوب معيشتهم ومصالحهم الاقتصادية. وأضاف إلى أن القيم كانت نتيجة استمدت وجودها من الأوضاع التي نشأ فيها الإسلام"(بركات،1985: 228).

وقد تُميز ماكس فيبر للمسيحية، وهو عالم اجتماع، له وزنه في الوسط البحثي الاجتماعي ،يعد خروجًا عن سياقات الدراسة العلمية المحايدة، والتي من المفترض ألا يحكم الباحث عن الظاهرة من خلال قناعته. كذا لم يُعدل المسلمون -أيًا كان زمانهم ومكانهم- في الدين. ولم يكيّفوه لمصلحتهم ،إلا فئة قليلة، تبتغي الدنيا عن الآخرة، وبخاصة القادة والساسة. أما المسيحية بوصفها الخلاص والتقوى والصلاح، فهو قول يجانب الصواب، ولكن في تعاليم المسيحية الأولى، وليس بعض التعاليم التي وضعها الرهبان والقساوسة على وفق مصالحهم وهواهم.

وفي حقبة زمنية لاحقة طور جورج هربرت ميد (1863-1931) هذه النظرية، إذ يعد الفعل الاجتماعي عند ميد هو " الذات تنشأ في سياق الخبرة والنشاط الاجتماعي، وليست كيانًا موجودًا مسبقًا، يدخل لاحقاً في علاقة مع الآخرين"(Mead,1934: 135). بذلك لا ينفصل الفعل عن الذات؛ إذ يمثل اللحظة التي تتشكل فيها تفاعلها الاجتماعي، فهي تعي نية ودور الآخر؛ وتفاعلها ليس مجرد رد فعل.

وفي كتابه (العقل، الذات، المجتمع)، عرض الدين " بمعناه الأوسع؛ هو مؤسسة اجتماعية، يجد من خلالها الأفراد المعنى والتوجيه بالمشاركة في تفاعلات رمزية مشتركة، إنه يوفر إطارًا لتكوين الذات من خلال التجربة الجماعية والوعي الجمعي"(Mead,1934:175). فـ" التجربة الدينية، هي- في أساسها - عملية تفاعل اجتماعي، يتم من خلالها تشكيل ذات الفرد عبر المشاركة في الرموز والطقوس الجماعية؛ وهذه العملية ضرورية لاستيطان القيم والأعراف

الاجتماعية المشتركة"(المرجع ذاته:182). تلك " الرموز، خاصة المستخدمة في الطقوس الدينية، تحمل معان تتجاوز الحالة الفورية، وتمنح الأفراد إحساسًا بالاستمرارية والتماسك في حياتهم الاجتماعية"(المرجع ذاته:190). و" تعمل المؤسسات الدينية على حفظ قيم المجتمع من خلال تجسيدها في رموز مقدسة، وتوفر هذه المؤسسات للأفراد إحساسًا بالانتماء وبوصلة أخلاقية، توجه سلوكهم ضمن بيئات اجتماعية معقدة"(المرجع ذاته:193).

يبدو الدين - من عرض هربرت ميد - مؤسسة اجتماعية، ذات نظام روحي، تهذب سلوك أفراد المجتمع، فالمشاركة بالطقوس الدينية، لا تعني فقط الممارسة للتقرب إلى الله، ولكنها طقوس تأديبيّة صارمة التوجه، تتشكل بواسطتها ذات الفرد، وتضبط هذه المؤسسات الفعل الاجتماعي، وتوجهه عبر تشبعها -هي الأخرى بثقافة- الدين بمعناها الكبير؛ فتعمل من خلال التفاعل الديني وطقوسه على تنمية الشعور بالانتماء لهذا الدين أو ذاك، وتضبط سلوك أفراد المجتمع وفعلهم في علاقاتهم بطريقة تتناسب مع تعليمات وقواعد الدين السائد. ويخلص ميد إلى أن الدين " شأنه شأن اللغة، ينشأ في العملية الاجتماعية، ويعتمد على تفاعل الذوات؛ فهو ليس مسألة شخصية، بل شكل من أشكال التواصل، يُسهم في بناء عالم أخلاقي مشترك"(المرجع ذاته:210). إذًا، الدين لدى ميد، ضابط يتشبع به أفراد المجتمع، ويصبح وازعًا داخليًا، ثابت القيم والمعايير - يلزم اتباعه -في أثناء تفاعلهم بأخلاقه، ليصبح الفعل الاجتماعي، هوية منغمسة بالثقافة الدينية.

أما التطور الحديث للنظرية، فقد أدخله تالكوت بارسونز(1902-1979)، عالم الاجتماع الأمريكي، صاحب نظرية السلوك لدراسة المجتمع، وقد ظهرت أول أعماله "بنية الفعل الاجتماعي" عام 1937م، إذ " وضع بارسونز إطارًا مرجعيًا لنظرية الفعل الاجتماعي. واستخدم هذا الإطار في وصف الصور الأساسية، التي يتشكل فيها الفعل الاجتماعي في شكل أنساق: النسق الثقافي، والنسق الاجتماعي، ونسق الشخصية، والنسق السلوكي، ثم حاول أن يفسر هذه الأنساق وعلاقتها ببعضها، أو من العلاقات التي تقوم بين العناصر، التي يتألف منها كل نسق"(القصير، 1978: 102). وفي نظرته عن الدين، رأى بأنه:" نظام مؤسسي من الرموز والمعتقدات والقيم، يوفر إطارًا لتفسير التجربة الإنسانية وتحفيز السلوك البشري، وهو يؤدي دورًا محوريًا في دمج الأفراد داخل المجتمع، من خلال إضفاء معنى على الحياة، ومنح الشرعية للنظام الاجتماعي".(Parsons,1951:369) وفي ذات السياق " يعمل الدين كنظام يخلق ويحافظ على النظام الأخلاقي للمجتمع، فهو يربط الأفراد بالمجتمع من خلال توفير إطارًا مقدسًا، يبرر الأعراف والمؤسسات الاجتماعية، ومن خلال الطقوس والرموز، يعزز الدين التماسك الاجتماعي؛ ويضفي الشرعية على السلطة"(Parsons,1951: 235-236).

" وقد أكد بارسونز بـأن سلوك الفرد الاجتماعي لا يصدر من فراغ، ولا من رغبته الذاتية؛ بل من تفاعله مع الآخرين من خلال المؤسسات الاجتماعية -ومنها المؤسسات الدينية ودور العبادة - لتقنن تصرفاته مع الآخرين بحسب معاييرها ليخرج السلوك على شكل تصرف منتظم وملتزم وموجه، أي يعجن بعجينة المحددات والضوابط والمعايير، ليكون صالحًا لاستعمال اليومي، وجاهزًا على شكل نموذج اسمه الفعل الاجتماعي"(عمر،1997:80)، تنظيم تلك العلاقات وضابط ايقاعها، يعود -بحسب بارسونز- إلى منظومة القيم والمتعقدات المشتركة التي يشترك فيها أفراد المجتمع، وترقب سلوكهم وتوجهه، وهو بذلك قد نظر للدين بوصفه نظامًا اجتماعيًا يجعل المجتمع في حالة استقرار بمساعدة الأنظمة الاجتماعية الأخرى.

ج- نظرية الصراع الاجتماعي:

اتخذت هذه النظرية اتجاهًا يختلف كثيراً عن التوازن والاجماع والتفاعل والفعل الذاتي؛ إذ إنَّها تجعل الصراع منهجًا يحرك أنساق ونظم المجتمع، ويمضي بها نحو التغيير، بل إنه أساس الحياة الاجتماعية. ويعد كارل ماركس(1818-1883) -عالم الاجتماع الألماني- ، مؤسسًا لهذه النظرية، وواضعًا لأركانها الأساسية؛ إذ قام فكره على أن تطور البنى الاجتماعية، وما يحرك التاريخ الإنساني، هو الصراع بين الطبقات، التي يتكون منها المجتمع؛ وركز على الصراع بين طبقتي البرجوازية والبروليتاريا، وكون الدين مُسكنًا متجدد العطاء. فمن " منظور كارل ماركس، يعد الدين جزءًا من التراكيب الأيدلوجية، التي تُسهم في تبرير الفوارق الطبقية، وتحافظ على الوضع القائم"(لوفيبر، هنري، ب ت:89). يبدو الدين في فكر ماركس، منظومة عقائدية ، تدعو للاستسلام والرضا بالقائم أيًا كان؛ مما يعزز الطبقية، وبقاء المظلومية على حالها، لذا رأى ضرورة القضاء عليه. ففي بيانه الشيوعي أورد " ليس تاريخ كل مجتمع إلى يومنا هذا سوى تاريخ صراع الطبقات، فالحر والعبد، والنبيل والعامي، والسيد والخادم، ومعلم الحرفة والصانع،

وباختصار فالظالمون والمظلومون، المتعارضون دومًا، خاضوا صراعًا لا ينتهي، صراعًا كان ينتهي -دائمًا- إما بتغيير المجتمع كله تغييراً ثورياً؛ وإما بانهيار كلتا الطبقتين المتصارعتين"(ماركس، انجلز،2015: 45-46).
وقد حاول كذلك "الكشف عن مصدر الالتزام بالقوى المقدسة الكامنة في جوهر الدين، فوجده في عدم المساواة الاجتماعية. وجاء بعبارته الشهيرة: الدين هو أنين الكائن المضطهد، وقلب العالم عديم الرحمة، وحس الظروف القاسية، أنه أفيون الشعوب"(بيومي،1982: 112). وبحسب ماركس ، أن " الأخلاق والدين والميتافيزيقا، وكل البقية الباقية من الأيدلوجيا، وكذلك أشكال الوعي، التي تقابلها، تفقد في الحال كل مظهر من مظاهر الاستقلال الذاتي؛ فهي لا تملك تاريخًا، وليس لها تطور، إن الأمر على النقيض من ذلك؛ إذ يطورون إنتاجهم المادي وعلاقاتهم المادية، هم الذين يحولون فكرهم ومنتجات فكرهم على السواء مع هذا الواقع الذي هو خاصيتهم، فليس الوعي هذ الذي يحدد الوجود؛ بل الوجود هو الذي يحدد الوعي"(ماركس وانجلز،1968: 31).
وبذلك قدم ماركس، الدين أداةً مؤدلجة للهيمنة، " تستخدمها الطبقات المهيمنة والمسيطرة على الطبقات العاملة؛ مما يحافظ على الوضع القائم ضمن إطار الجدلية المادية التاريخية. فيصبح نوعًا من أنواع الوعي الزائف، الذي يبرر ويخفف معاناة المستضعفين؛ إذ يقدم وعودًا بالأمل والخلاص، مما يجعلهم يتقبلون آلامهم ومعاناتهم، وهو ما يعبر عنه بقوله: إن الدين هو أفيون الشعوب، ذلك أن الدين يعمل كمخدر، وظيفته تبرير الظلم الاجتماعي والتكيف معه. إلا أن هذا التحليل، يعد تسهيلًا لدور الدين؛ إذ يتجاهل الجوانب الروحية والأخلاقية، التي يمكن أن يقدمها الدين للفرد والمجتمع؛ إذ لطالما كان الدين مصدرًا لإلهام الشعوب في تحقيق قيم الإنصاف والعدل؛ ذلك أن العديد من الحركات الدينية، أدت دورًا مهمًا في النضال من أجل العدالة الاجتماعية وحتى الحقوق المدنية مثل الدور الذي قامت به حركة مارثن لوثر كينغ جونيور في الولايات المتحدة الأمريكية، الذي طالما استخدم المواعظ الدينية والأناجيل في خطابه الشهير (أنا أحلم)، كما استندت رؤيته للعدالة الاجتماعية إلى القيم المسيحية، مثل المحبة والرحمة والتسامح"(اللوز،2024: 135).
وبرأي " ماركس، أن المجتمعات كلها ماعدا الشيوعية تمر بصراع طبقي؛ لأن التملك الخاص، هو ديدن هذه المجتمعات، وبالتالي حاول الملاك وأصحاب العمل، أن يسيطروا على المجتمع، وأن يرفدوه بأفكار وهمية تبريرية، غايتهم منها أن تبقيهم في مكانتهم، فنشأت الإيدلوجيات كمبرر لهم؛ مما أدى إلى أن يكون هناك اغترابٌ في المجتمع، ليس على الصعيد الاقتصادي فحسب؛ بل على الصعيد السياسي والفكري لا سيما الديني، الذي أُعطي قدسية كبيرة في المجتمع فضلاً عن أنه المصدر الرئيس للطبقات المسيطرة، ولهذا خص ماركس الدين بالنقد في أكثر من مرة؛ إذ رأى أن الدين يوصي بالإذعان والتذلل والخنوع بوجه المسيطرين؛ وهذا سيؤدي إلى وجود مجتمع ثوري، ولأجل أن يُغير ماركس المجتمع، دعا بأن نقد الدين هو شرط كل نقد، لأن الدين لا يعطي دورًا فعالًا للإنسان، فتغيير المجتمع يبدأ من خلال نقد الدين ورفضه باعتباره بناءً فوقياً وهمياً، لا يمكن له الوجود إلا في بلاد اللاعقل؛ لأن الدين يجعل الإنسان لا مفكرّا، فالقضاء عليه هو الطريق الأول في بناء مجتمع لا تحكمه الأيدلوجيات"(خليفة،2014: 201-202).
ومن هذا المنطلق، وجد ماركس أن الصراع بين الطبقات، ناتج عن أدلجة عقول أفراد المجتمع، وجعلهم أدوات بيد الإقطاع أو السلطة، مستغلين إيمانهم لبقائهم مخدرين طائعين لهم. وفي اتجاه معاكس، رأى الدين أداة للتغيير وصناع لمجتمع جديد، قد يكون خاليًا -أيضاً- من الدين نفسه، فالمجتمعات لا تنهض والعقول لا تتحرر، إلا بانتهاء الفكر الديني، وإطلاق حرية اختيار الاتجاه لكل فرد من أفراد المجتمع.
وبالانتقال إلى المرحلة الوسطى للنظرية -إن جاز التعبير - وطرح سياقات جورج زيمل (1858-1918) المعرفية بشأن هذه النظرية، ونجد أنه أهتم بالهويات والتفاعلات اليومية، والصراع بنظره جزء طبيعي من الحياة الاجتماعية.
وقد كتب جورج زيمل عن طبيعة الدين وغموضه؛ فقال: " إن الغموض المحيط بأصل وطبيعة الدين، لن يزول أبدًا ما دمنا نتعامل مع المشكلة على أنها كلمة واحدة، يمكنها أن تكون الكنز السحري، وحتى الآن، لم يتمكن أحد من تقديم تعريف، يخلو من الغموض، ويتميز بالشمول الكافي، يحدد مرة واحدة وإلى الأبد ما هو الدين في جوهره؛ أي ما هو مشترك بين دين المسيحيين وسكان جزر البحار الجنوبية، والبوذية، وعبادة الأصنام المكسيكية"(Simmel,1905: 369).
ويُفسر جورج زيمل المرحلة القَبليّة للدين وتشكله داخل الذات " بما يسميه صفة روحية خاصة أو موقف الروح ، وهي منظور ديني يتشكل تدريجيًا، وعندما تتبلور هذه النظرة في سياق تفاعل اجتماعي محدد، تتحول إلى دين فعلي"(Tastan & Aksoy,2020: 54)، إذًا فالدين من منظوره " شكل من أشكال التفاعل الاجتماعي يرتقي إلى

مستوى من الكثافة، يخلق فاعلية رمزية بي الأفراد"(Tastan & Aksoy,2020: 41). و" تتجلى أهميته في كونه يؤسس لرابطة تتجاوز التبادل المادي، وتُضفي طابعًا رمزيًا على الحياة الاجتماعية؛ مما يمنحها معنى"(بوحوش،2015: 210) وبذلك يمثل الدين حياة اجتماعية متفاعلة، تؤدي إلى أهداف، تسعى إلى التخفيف من صراع المجتمع، وتجمعه في هوية تميزه عن المجتمعات الأخرى.

ويبدو أن زيمل -هنا- يشير إلى الوظيفة الكامنة للدين في جمع روح المجتمع من تفاعل أفراده على ترانيم وطقوس معينة، تمنحهم تجمعًا روحانيًا، يخفف من اتجاههم المادي، الذي قد يؤدي إلى صراعات؛ وبذلك " يُفهم الدين بوصفه ظاهرة موضوعية، اجتماعية وتاريخية، في مقابل الدينانية بوصفها ظاهرة ذاتية، وتَّعد الدينانية بمثابة مرحلة لنشوء الدين المنظم"(Motak,2012:109)،.فالأديان في " جوهرها ليست إلا تجليات متعددة لتوجه نفسي واحد، فالديني لا يوجد أولًا في المعتقدات، بل في تجربة روحية داخلية، سابقة على العقيدة والشعيرة، وهذه التجربة تتسم بالدينامية؛ أي كونها توجهًا حيًا نحو المطلق"(زيمل،2011م:23). و" القيمة العاطفية للدين، أي التأثير الذاتي الأعمق لفكرة الله مستقل -تمامًا- تماماً عن أي افتراض حول طريقة نشوء الفكرة"(Simmel,1905: 376). و" التجربة الدينية ليست مجرد إسقاط للحياة الاجتماعية؛ بل هي شكل مستقل من أشكال اختبار الواقع، متجذّر في تركيب فريد من الشعور والشكل"(Simmel,1997: 57). وبذلك نجد الدين في فكر زيمل نسقًا اجتماعيًا خارجيًا، متغيرًا بتغير اتجاه الجماعة الدينية، ويتشكل في إطار ذات الفرد، ثم يخرج في صورته النهاية بما يسمى (دِينًا).

وينظر زيمل بإيجابية إلى الصراع الديني بوصفه وسيلة للتغير نحو تفاعل وتماسك المجتمع، وكذا إعادة تشكيل الهوية والتعرف إليها، بما يسهم في استقرار المجتمع؛ " فالصراع الديني، هو بداية تقود إلى نهاية الإيجابية، إذ يمكن أن يؤدي إلى التواصل، والتعريف بالهوية، و إعادة إحياء القيم، وتماسك اجتماعي واندماج؛ بل ويعمل كصمّام أمان اجتماعي"(Ifezue,2021: 350).

وكما بدأنا الدراسة بعالم عربي - ابن خلدون - ننهي عرضنا للسياقات المعرفية لعلماء النظريات الدينية بعالم اجتماع عربي كتب عن الصراع الديني وما يصحبه من ظواهر دينية وأثر الدين في المجتمع، محللاً كيفية استغلال بعض الجماعات والتنظيمات الدينية له، وكتب -أيضاً - عن الايدلوجيا وتكوين فكر الفرد في إطار المجتمع، وكيف يتبنى المجتمع تشكيل فكر الفرد من دون إرادته؛ ذلك عالم الاجتماعي علي الوردي، وهو عالم اجتماع معاصر، من العراق (1913-1995م)، الذي تبنى فكر كارل ماركس عن الصراع والدين، ففي كتابه – مهزلة العقل البشري كتب " إن الدين ثورة وأفيون في آن واحد، فهو عند المترفين والأنبياء ثورة، وكل يبدأ على نبي ثورة، ثم يستحوذ عليه المترفون بعد ذلك ويحولونه إلى أفيون".(الوردي،1994: 250) وقال -أيضًا- " إن النفس البشرية تهوى الإيمان بدين، فإذا فقدت دينًا من السماء التمست لها دينًا يأتيها من الأرض".(الوردي،1995: 261)، وقال إذا " منعنا الشعوب عنه، لجأت إلى منحدر آخر للاستعانة على مواجهة الحياة وأخطارها"(الوردي،2007: 394).

وفي رؤيته عن نمو أيدلوجية الفكر والدين، كتب الوردي:" إن الإنسان لا ينمو عقله إلا في حدود القالب الذي يصنعه المجتمع له"(الوردي،1994: 133). "و إن شر المجتمعات، هو ذلك المجتمع الذي يحترم طريقًا معينًا في الحياة في الوقت الذي ينصح الواعظون فيه باتّباع طريق آخر معاكس له"(الوردي،1995: 18). وعن الدين الإسلامي ودور النبي -ﷺ- كتب الوردي:" كان -محمد -ﷺ- ثائرًا مجددًا، يدعو إلى التقدم الاجتماعي في أقصى معانيه، وذلك بخلاف ما نرى الآن من رجال الدين من جمود ومحاربة لكل شيء جديد. وكان من أكره الأمور عند النبي -ﷺ- أن يقول الناس: إننا وجدنا آباءنا على أمة، وأنا على أثارهم مقتدون"(المرجع ذاته:104). العيب ليس بالدين، بل ببعض حاملي رسالته؛ " الأمر الذي جعل الدين وكأنه مهنة يُرتزق منها، فهو -أي رجل الدين- مضطر إلى مدارة مصدر رزقه، سواءً كان ذلك من الحكام أو العوام"(الوردي،2007: 399). فالنبي -ﷺ- وصاحب الفكر والمصلح من " يأتي بالفكرة اليسيرة جدًا، ولكنه يقلب بها وجه العالم، لأنه يأتي بها عملية تؤثر في حياة الناس، وتدفعهم نحو الحركة الاجتماعية، التي تؤدي دورها في صياغة التاريخ"(الوردي، 1994 :94).

من هذه النصوص، يتضح لنا تأثر الوردي بماركس والسير على المسير ذاته الفكري من حيث سيطرة القوة السلطوية والدينية على المجتمع، وتوجيه أفراده نحو طريق يخدم مصالحها، وهو ينظر إلى الدين كضرورة حتمية، يبحث عنها الفرد، أينما كانت سماوية أم موضوعة. والدين بصورته الأولى تغيير ومساندة للطبقات الدنيا وعدالة ومساواة، ثم تنقلب الحكاية إلى أدوار سلطوية تهيمن عن الكيان الأيدلوجي للفرد، للحفاظ على وجودها ومصالحها.

المبحث الرابع: مقارنة سوسيولوجيا بين النظريات موضوع الدراسة:

وفيما يأتي نجري مقارنة بين النظريات الثلاث من حيث أوجه التشابه والاختلاف، واستعراض مكامن ونقاط القوة والضعف، ومن ثم نستعرض إسهامات مفكري علم الاجتماع في تحليل الدين والظاهرة الدينية بالنظريات الثلاث معاً (بارسونز أنموذجًا)، نسردها كما يأتي:

أولاً: أوجه التشابه والاختلاف:

أوجه التشابه	أوجه الاختلاف		
	البنائية الوظيفية	الفعل الاجتماعي	الصراع المادية
	وظيفة الدين		
النظريات الثلاث ركزت على دراسة تفاعل أجزاء المجتمع مع بعضها كوحدة متكاملة ومتماسكة. وتقر كذلك بدور الفرد وتأثيره في المجتمع والعكس، ولو بدرجات متفاوتة.	اتخذت الدين بوصفه وظيفة وعاملًا رئيسًا لحفظ النظام والتوازن والاندماج والاستقرار الاجتماعي.	عدَّت الدين بوصفه مجرد انعكاس للفرد وتجربته؛ أي تأويل شخصي جماعي.	أكدت أن الدين وسيلة للسيطرة وفرض الهيمنة و وسيلة للتعبئة، يستخدم في تبرير السلطة وتكريس الطبقية، وحتى في تحفيز التغيير.
	تحليل بالدين		
اشتركت النظريات الثلاث بالاهتمام بدراسة وتحليل أثر الدين والظواهر الدينية في فعل وتفاعل الأفراد في إطار المجتمع.	تحليلها يبدأ من البنى الكبرى والأنساق المرتبطة بها، ودور الدين في تماسك المجتمع.	تحليلها ينصب على الفاعل الاجتماعي، وما يصبغه على الدين لفهم ذات المؤمن.	حللت الدين ماديًا ؛ كونه يستخدم لتحفيز الثورات أو لتبرير النظام القائم، تحليل أيدلوجي بحت.
	الدين والبنية الاجتماعية		
الدين عند النظريات الثلاث مؤسسة اجتماعية، ذات وظيفة ضابطة ومؤثرة تؤدي رسالة في ظاهرها طقوس وهوية، وفي باطنها؛ قيم تصبح وازعًا ورقيبًا لأفراد المجتمع.	يعكس الدين قيم المجتمع المتفق عليها، بل ويعيد إنتاج النظام. وهنا أغفلت النظرية عن معنى الفعل الذاتي في التدين وعن بُعده الرمزي.	جعلت فهم الدين مرتبطًا بتأويل أفراد المجتمع وتفاعلهم. وهي بذلك أهملت البناءات الكبرى والمؤسسات الدينية ودورها الضابط في لمجتمع.	علاقة الدين بين طبقات المجتمع ونُخبه علاقات صراعية، وسلطوية.

	مصادر القيم الدينية		
اهتمت النظريات الثلاث بوظيفة ودور الدين في تنظيم علاقات أفراد المجتمع، وأيضًا إمكانية الدين أداء دور إيجابي أو سلبي، سواء على مستوى الفرد أو المجتمع.	تُستمد من النظام الاجتماعي الحامل للقيم والمعتقدات المشتركة.	يحتاج الفرد إلى التفاعل والتأويل لإنتاج قيم دينية بل ولإعادة إنتاجها.	مصدرها مصالح الطبقة الحاكمة أو المسيطرة، وقد تصدر من التعبئة الاجتماعية.
	دور الفرد		
	دوره جزءًا من كل متكامل، يشارك في أداء دور وظيفي.	يصنع المعنى ويعيد إنتاجه عبر تفاعله مع أفراد المجتمع، دور محوري رئيس.	يتحدد دوره بمحدودية ضمن إيدلوجية السلطة والبنية الطبقية.
	التغير الديني		
النظريات الثلاث اعترفت بالدين كمنظومة من القيم والمعاني والتعليمات؛ المؤثرة في سلوك الأفراد والجماعات من خلال الفعل أو الوظيفة. وجميعها تفسر وجود إمكانية الدين إحداث تغيير في المجتمع.	يعد تهديدًا لاستقرار البناء الاجتماعي؛ أي خللًا وظيفيًا.	لا يشكل خطراً ويحدث بطريقة طبيعية عندما تتغير تفسيرات ومعاني الأفراد.	ينتج عن التحولات الطبقية أو تغير المصالح، وكذا تغير علاقات مصادر القوة، كالحركات الثورية واستخدامها للدين، وكذا يمكن يكون الدين أداة لإعادة استقرار المجتمع.

يعد مجهود المقارنة أعلاه، محاولة لاختصار جهود علماء النظريات الثلاث للخروج بخلاصة مفادها أن الدين اتخذه أفراد المجتمع أداة لاستقرار المجتمع، أو للسيطرة عليه وللتغير، وإن تفاوت عرض ذلك بالنظريات الثلاث، فإنه لايمكن تجاهله؛ فنظرية الصراع، بيّنت أن الكنيسة في أوروبا، اتُخذِت لخدمة الإقطاع أو الحركات الثورية الدينية. والنظرية الوظيفية، رأت أن الدين أداة للتضامن من خلال ممارسة الطقوس الدينية، مما يُحدث توازنًا للمجتمع من خلال هذا الإجماع في ممارسة الطقوس، كما رأى دور كايم، أما نظرية الفعل فقد عدَّت الدين قوة دافعة للتغيير الاجتماعي، وربطت تحديد وتغيير سلوك الفرد بعلاقته ورؤيته لربه، حسب ماكس فيبر.

ثانيًا: نقاط القوة والضعف:

النقاط	النظرية البنائية والوظيفية	نظرية الفعل الاجتماعي	نظرية الصراع
القوة	- تعد الدين أحد النظم الأساسية لتماسك وتوازن المجتمع واستقراره. - الدين يمثل دورًا بارزًا في الهوية المشتركة وقيم الجماعة. - الدين وسيلة لدمج الأنساق الثقافية والمعيارية.	- فسرت الدين كمحرك للفعل. ومانح للمعنى الذاتي للأفراد. - الدين عبارة عن تجربة فردية تحمل غاية شخصية. - فسرت الظاهرة الدينية والفعل الديني من منظور المعاني التي ينسبها الأفراد إليها.	- عرضت الدين بوصفه أداةً بيد السلطة والجماعات الدينية. - يُستخدم الدين لضبط المجتمع، وتبرير الوضع القائم. -الدين أداة للتغيير الاجتماعي، في مجتمع غير مستقر. - ربطت سلطة الدين والقيم والمعنى بتفاعلها الاقتصادي مع المجتمع.
الضعف	- تعد الدين قوة تحافظ على النظام القائم من دون توجيه نقد له. - تغفل عن الشخصية تجربتها الدينية، والمعنى الذاتي للفرد. - قد تبرر الاستغلال الديني للمؤسسات.	- تركز بمبالغة على الذاتية. وتهمل الأطر البنيوية. - أضعفت تحليل الدين من موقع بنيوي كمؤسسة في المجتمع. - لا تقدم تفسيرًا واضحًا عن المؤسسات الدينية كأنظمة اجتماعية.	- تبالغ في دور الصراع في المجتمع بجعله أساسيًا ودائمًا ويصعب تجاوزه. - جعلت الدين أداة للسيطرة، وهمشت وظيفته في التضامن مثلًا. - تعمم الصراع على ظواهر المجتمع ومنها الدينية من دون مراعاة دور ووظيفة الدين في السياق التاريخي والثقافي.

اشتركت النظريات -موضوع الدراسة- بطرح هويتها الخاصة في رؤيتها للدين كقوة مؤثرة في المجتمع، وكل نظرية دافعت عن فكرها حتى وإن شابه بعض الضعف، ففي حين جعلت النظرية الوظيفية الدين مثاليًا في ضبط المجتمع والتمسك به طوق نجاة الأنظمة الاجتماعية، بالغت نظرية الفعل حول المعنى الذاتي وانعكاس الدين عبره، وفي المنحى الثالث عرضت نظرية الصراع الدين كسلطة مستغلة لأفراد المجتمع أو كقوة للتغيير.

ثالثاً: مفكرو علم الاجتماع وإسهاماتهم في تحليل الدين عبر النظريات الثلاث (بارسونز أنموذجًا)

يبدو فكر بارسونز، قد اتجه بوضوح نحو نظريتي البنائية الوظيفية والفعل الاجتماعي، ومع ذلك عرض الصراع ضمن السياقات المعرفية لتلك النظريتين، على النحو الآتي:

النظرية	نظرته للدين	الدين والفرد	الدين والبنية الاجتماعية	دور وتأثير الدين
النظرية البنائية الوظيفية	الدين مؤسسة اجتماعية رئيسة، تؤدي وظيفة تكاملية داخل النظام (جزء من منظومة AGIL)	يمنح الدين الفرد الهوية والانتماء، ويعزز الاستقرار النفسي والأخلاقي.	يحقق الدين التضامن عبر الطقوس والقيم المشتركة، ويوفر شرعية للنظام السياسي والاقتصادي.	يعد الدين أداة للتماسك والاندماج، وضمان استقرار المجتمع واستمراره.
نظرية الفعل الاجتماعي	الدين نسق رمزي ومعياري، يزود الفاعلين بالمعنى، ويمنح الشرعية للأفعال.	يساعد الدين الفرد على مواجهة التساؤلات الوجودية (الموت والمعاناة والمصير). ويوجه على وفق قيم أخلاقية عليا.	يربط الدين الأفعال الفردية بالنظام الاجتماعي عبر المعايير والرموز المشتركة.	يمنح الدين المعنى للفعل الفردي، ويجعله مندمجًا مع الإطار القيمي للجماعة.
نظرية الصراع	يسهم الدين في تخفيف التوترات وضبطها ضمن النظام الاجتماعي.	يساعد الدين الفرد على تحويل صراعاته الداخلية إلى معانٍ مقبولة.	يوجه التوترات الاجتماعية إلى قنوات شرعية، ويقلل من حدتها.	يعمل بوصفه آليه، لامتصاص الانحراف واحتوائه، وإعادة دمج الأفراد ضمن النظام الاجتماعي.

ينطلق بارسونز باتجاه المجتمع عند تفسيره للدين وتحليله، وذلك في النظرية البنائية الوظيفية، وعلى الجانب الآخر في نظرية الفعل الاجتماعي، يتجه نحو الفرد ودوافعه وتفسيراته، إذ تؤدي الصلاة في النظرية البنائية الوظيفية إلى ترابط الجماعة، وتأكيد القيم المشتركة، وتماسك المجتمع، في حين نظرية الفعل الاجتماعي تعّبر الصلاة عن إيمان الفرد، ودافع داخلي للفعل الرمزي. إذًا، لم يفصل بارسونز – تمامًا- بين النظريتين، بل استخدم الفعل الاجتماعي بوصفه أساسًا مفاهيميًا داخل منظومة وظيفية كلية. وعند تحليله للدين، نظر إليه كمنظومة رمزية، تؤدي أدوارًا وظيفية، وفي ذات الوقت تؤثر في أفعال الأفراد. وبذلك نعتقد أن (بارسونز)، يمتلك نظريته الخاصة، التي يجمع فيها أثر الفرد والمجتمع ودورهما ومكانتهما؛ فلا يمكن عرض أحدهما من دون الآخر. أما تفسيره التحليلي للدين في نظرية الصراع، فإن الدين قد يعطي شرعنه للسلطة الاجتماعية، وقد يستخدم لتوجيه الانقسامات أو السيطرة الرمزية. كما عدّ بارسونز الدين في نظرية الفعل الاجتماعي ونظرية الصراع الاجتماعي؛ كونه فاعلًا أساسيًا لوظيفة الاستقرار الاجتماعي، وأكد في أنه يعمل على تخفيف نشوب الصراعات والتوترات داخل الأنظمة الاجتماعية.

مناقشة نتائج الدراسة وتحليلها:

درس علماء الاجتماع الأوائل ومؤسسو النظريات؛ وكذا المحدثون، المجتمع وبنيته والفرد، ولكن اللافت للنظر، عرضهم وربما تبنيهم لفكر أكثر من نظرية؛ كماكس فيبير - على سبيل المثال لا الحصر- كما هو مؤسس الفعل الاجتماعي كتب في النظرية الوظيفية والتفاعلية الرمزية وحتى في نظرية الصراع، وبذلك فِكر النظريات غني بتعدد طرح علماء الاجتماع في اتجاهاتهم المختلفة؛ إذ إنهم يدورون حول حلقة المجتمع، مفسرين تفاعلاته وعلاقاته كُلَّ

بحسب رؤيته. وفي سياق آخر، نجد الأديان -كما في فكر علماء الاجتماع- نظمت الحياة الاجتماعية، ووضعت لها قواعد وضوابط لتحقيق الاستقرار للفرد والمجتمع.
وعلى الرغم من التداخل الفكري بين النظريات الثلاث في تحليل المجتمع وبنيته والفرد، إلّا أننا نجد كل نظرية تفردت بهويتها الخاصة بالتركيز على مفهومات معينة، تميزها عن الأخرى. وقد عرض العلامة العربي ابن خلدون ذلك باستفاضة، وإنّا لنراه المؤسس الحقيقي، كما هو مؤسس علم العمران؛ أي علم الاجتماع - يعد أيضًا مؤسسًا للنظرية الوظيفية، ومساهمًا في نظرية الصراع؛ فقد فسّر كيف يقوم الدين بدور الضابط الداخلي للفرد، والضابط الأول لسير الحياة وتفاعل المجتمع؛ وهو بذلك يحاكي الأثر الضمني والظاهر للدين حتى قبل العالم المعاصر روبرت ميرتون.
وفي سياق متصل، فسرت نظريات علم الاجتماع وبخاصة في المجال الديني والنظريات موضوع الدراسة، - وهي من أبرز النظريات في علم الاجتماع الديني- مكانة الدين وتأثير ودور في الحيلولة من دون تفكك المجتمع أو انهياره، وبقاء الفرد ضمن منظومة اجتماعية، وتأديته للفعل اليومي، بما يتناسب مع توجه المجتمع العام والديني. وفي السياق ذاته، نظرت البنائية الوظيفية إلى الدين بوصفه أداة لاستقرار المجتمع، من خلال ممارسته لوظائفه على مستوى البنية، وبذلك منحت رؤية كلية لبنية المجتمع الديني. في حين الدين بنظر نظرية الفعل الاجتماعي، يعكس الذات ويعبر عنها، فمن الأفعال الفردية، تُفهم الظاهرة الدينية وتفاعلات المعنى. وبذلك قدمت فهمًا عميقًا لتجربة الفاعل ومعانيه الدينية، وتكمن أهمية هذا التعدد النظري في إثراء فهم الظاهرة الدينية، عبر الجمع بين تحليل البنية والمعنى، والمجتمع والفرد، والنظام والدافعية. وتتعدّى نظرية الصراع الفكر الديني الهادف لتماسك المجتمع وإلى استغلال الدين وجعله أداة للمحافظة على مصالح السلطة والطبقات العليا، ومن جانب آخر يعد وسيلة للتغيير وإحداث حراك مجتمعي.
كذلك اشتركت نظريتي الوظيفية والفعل في بعض مسارات التحليل للمجتمع والفرد، وأظهرتا -أيضًا- اختلافًا في الموضوع ذاته؛ إذ اشتركتا في وجود أثر بارز للدين في المجتمع وبنائه الاجتماعي وأفراده، في حين اختلفت بمستوى قوة حضوره وتأثيره فيهما، وقد عرضنا ذلك بالتفاصيل المجدول في المبحث الأخير. وفي الإطار ذاته، تعد نظرية الصراع؛ الدين أما أداء للاستغلال أو التغيير، وتصل النظريات الثلاث إلى أن الدين ضابط قيمي ومعياري لتفاعل أفراد المجتمع وأداء فاعلة للتغيير.
ومما يؤخذ على نظريتي الوظيفية والفعل؛ أنهما دمجا دور الدين وأثره في المجتمع والفرد معًا؛ فلا يمكن فصلهما والتركيز على أحدهما من دون الآخر بحسب ما نعتقد؛ وقد وضحنا ذلك في الجدول السابق في المبحث الأخير من هذه الدراسة. أما نظرية الصراع، فقد جعلت الدين سلطويًا أداة لجبر الطبقات الدنيا على الخضوع والاستلام، وربما كان ذلك بإرادتها من غير تسلط أو جبر، ، وبعد إحداث تغيير بالمجتمع، جعلت الدين أداة لإعادة استقراره.
كذلك من نقاط القوة المشتركة للنظريات الثلاث، سواءً أكان الدين قوة لتماسك المجتمع، أم محرك لفعل الذاتي، أم أداة للتغيير، هو اعترافها بدور الدين بوصفه قوة مؤثرة في المجتمع، قد تمنحه الاستقرار والثبات وهوية راسخة، وقد تمنحه التغيير نحو الأفضل.

الخاتمة:

بينت الدراسة مكانة النظريات -موضوع الدراسة -في فهم الدين والظواهر المرتبطة به، ويبدو أن مسار علم الاجتماع الديني، قد تبلور بالطرح الفكري لعلماء هذه النظريات؛ ، فالبنائية الوظيفية، ترى الدين نظامًا مؤسسيًا، يؤدي أدوارًا في التكامل والضبط الاجتماعي، كما عند دور كايم وبراون؛ ونظرت للدين بوصفه أداة للضبط والتكامل الاجتماعي، وفي وقت لاحق طور ميرتون تحليل الظواهر الدينية بالوظائف الظاهرة والكامنة.
وفي الاتجاه الآخر - نظرية الفعل الاجتماعي – ركزت على الفاعل والرمز، وإبراز المعنى الذاتي، والرمزي للفعل الديني؛ إذ ركز فيبر على المعنى الذاتي للدين في توجيه الفعل، في حين ركز ميد وبارسونز على البعد الرمزي والمعياري للدين، ضمن سياقات الفاعلين. وبين هذين البعدين؛ يظهر الدين بوصفه قوة تربط بين المجتمع والفرد، وتمثل مسارًا آمنًا بين النظام والدافعية.
أما الاتجاه الثالث الذي عرض -الصراع- فيرى الدين سلطة ذات تأثير مسيطر على الطبقات الدنيا في المجتمع، وفي الوقت ذاته محرك للتغير متى ما استخدمته القوة والجماعات ذات التأثير الديني؛ إذ رأى كارل ماركس، أن الدين يبرر الطبقية والظلم القائم في المجتمع. في حين جوزج زيمل، رأى أن الصراع الديني يقود إلى نتائج إيجابية، توضح الهوية

وتحفظ القيم. أما علي الوردي، فاتجه نحو أدلجة المجتمع للفرد باتجاه يناسبه، وأن الدين -كما عند كارل ماركس- أفيون الشعوب.
وملاك القول، أنّه مهما تعددت الرؤى، فكل النظريات وجدت الدين حاضرًا في المجتمع بقوة، سواء أكان حضوره إيجابيًا أم سلبيًا، وبذلك يعد مؤثرًا هنا أو هناك.

توصية الدراسة:
الدين عصب المجتمع، خاصة في مجتمعاتنا العربية، ودراسته في أطر دينية فقط، يقلل تواصله مع المجتمع؛ لذا نأمل تكثيف الدراسات الاجتماعية في المجال الاجتماعي الديني.
ولأن النظريات ركيزة أي علم، فدراستها وتوضيحها في التحليل، يعد غاية في الأهمية للوصول -مستقبلًا - إلى نظرية عربية دينية، تحاكي ظواهر مجتمعاتنا، كما فعل -من قبل - ابن خلدون.

المصادر والمراجع:

أولًا: المصادر والمراجع العربيّة والمترجمة:

1- ابن خلدون، أبو زيد عبدالرحمن بن محمد (2003م)، مقدمة ابن خلدون: كتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، المكتبة العربية، بيروت.

2- اكوافيفا و باتشي(2011م)، علم الاجتماع الديني، الإشكاليات والسياقات، ترجمة: عزالدين عناية، ط1، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث -كلمة- الإمارات العربية المتحدة.

3- بركات، حليم(1985م) المجتمع العربي المعاصر، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

4- بوحوش، عمار(2015م) النظرية الاجتماعية، دار الغرب، الجزائر.

5- بيومي، محمد أحمد،(1982م) علم الاجتماع الديني، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر.

6- الحوات، علي(1998م)، النظرية الاجتماعية-اتجاهات أساسية- منشورات فاليتا، مالطا.

7- الخريجي، عبدالله(1990م)، علم الاجتماع الديني، ط2، سلسلة دراسات المجتمع العربي-الكتاب التاسع- ملتزم التوزيع رامتان- جدة، المملكة العربية السعودية.

8- الخشاب، أحمد(1970م)، دراسات أنثروبولوجيا، دار المعارف، القاهرة.

9- الخشاب، سامية(1987م)، علم الاجتماع الإسلامي، ط4، دار المعرفة، القاهرة.

10- خليفة، بشير(2014م)، ماركس ونقد المجتمع، في: مجموعة من مؤلفين الفلسفة الألمانية والفتوحات النقدية، قراءات في استراتيجيات النقد والتجاوز، ط1، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، بيروت.

11- دور كايم، أميل(1915م) الأشكال الأولية للحياة الدينية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ترجمة حسين احمد أمين.

12- زيمل، جورج(2011م) الدين: مدخل إلى التحليل الاجتماعي، ترجمة عبدالرحمن الواعر، دار نينوى، دمشق.

13- عبدالباقي، زيدان(1981م) علم الاجتماع الديني، مكتبة غريب، بنغازي.

14- عبد المعطي، عبد الباسط(1981م)، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، مجلس الثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة (44)، الكويت.

15- عمر، معن خليل(1997م)، نظريات معاصرة في علم الاجتماع، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن.

16- عودة، محمود(1995م)، أسس علم الاجتماع ، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت.

17- كريب، أيان(1999م)، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابزماس: ترجمة محمد حسين غلوم، مجلس الثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة (244)، الكويت.

18- كوثراني، فرح(1999م)، علم الاجتماع الديني في دراسة النهضة الرأسمالية "نموذج ماكس فيبر"، مجلة منبر الحوار، العدد 39، بيروت.

19- كوزر، لويس(1956م)، وظائف الصراع الاجتماعي، دار فري بريس، ألمانيا.

20- لوفيبر، هنري (ب ت)، ماركس وعلم الاجتماع، ترجمة بدرالدين قاسم، كتابك للنشر والتوزيع.

21- ليجيه، دانيال هيرفيه و يلام، جان بول(2005م)، سوسيولوجيا الدين، ترجمة درويش الحلوجي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

22- ماركس، انجلز(2015م)، البيان الشيوعي، ترجمة: العفيف الأخضر، ط1، منشورات الجمل- مكتبة الفكر الجديد، بيروت.

23- ماركس، كارل و انجلز فريدريك (1968)، الايدلوجية الألمانية: ترجمة فؤاد أيوب، دار دمشق، سوريا.

24- محمد، علي محمد(1982م)، المفكرون الاجتماعيون قراءة معاصرة لأعمال خمسة من أعلام علم الاجتماع الغربي، دار النهضة العربية، بيروت.

25- مدآس، فاروق(2003م) قاموس مصطلحات علم الاجتماع، دار مدني للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.

26- القصير، أحمد(1978م)، منهجية علم الاجتماع بين الماركسية والوظيفية البنيوية،ط2، دار العالم الثالث القاهرة.

27- الوردي، علي(1994م) مهزلة العقل البشري، ط2، دار كوفان، لندن.

28- الوردي، علي(1995م) وعاظ السلاطين، ط2، دار كوفان، لندن.

29- الوردي، علي(2007)، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج5 ملحق5، دار الراشد بيروت.

ثانيًا: الأبحاث والمقالات العلمية:
1- جمال، حواوسة(2022م) الاتجاهات النظرية في علم الاجتماع الديني -نظرة عامة- جامعة 8 ماي 1945 قالمة، مجلة المحكمة- المعيار- مجلد:26، العدد:3(ر ت 65)، الجزائر.
2- سعيدة، زيزاح،و حجاج أحمد(2021م)، التفسير الاجتماعي للظاهرة الدينية، مجلة دراسات اجتماعية، المجلد (5)، العدد 2، الجزائر.
3- اللوز، أنيس(2024م) قراءة في المقاربات النظرية الكلاسيكية في علم الاجتماع الظاهرة الدينية: أوغيست كونت، دور كايم، ماكس فيبر، كارل ماركس، مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية-مجلة محكمة-، المجلد(1)، العدد 8، المغرب.
4- محمد، غربي وإبراهيم قلواز (2019م) النظرية الوظيفية البنائية نحو رؤية جديدة لتفسير الظاهرة الاجتماعية، مركز الجامعي تيسميلت، مجلة التمكين الاجتماعي – مجلة محكمة- المجلد (1) العدد (3)، الجزائر.
5- منديب، عبدالغني(2021م) الاعتقاد الديني كموضوع للسوسيولوجيا والأنثروبولوجيا: النظرية والمنهج، مقالة بحثية منشورة، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، https://mominoun.com

ثالثًا: المراجع والمصادر الأجنبية:
1-Brown,Rad (1952), Structure and Function in Primitive society, London.1
2-Durkheim, E {1912}1968, Les Fromes elementaires de la vie religieuse, coll "Quadrige", Presses Univesitaires de presses. Paris.
3-Gibbs, (1972), Sociological Theory Construction, Dryden Press,New York.3
4- Ifezue, Chijioke Fidelis (2021) Georg Simmel and the Stady of Religious Conflicts, UNIZK journal of Religion and Human Relations, vol.13, no.
5- Merton, Robert K (1957), Social Theory and Social Structure (2nd ed), The Free Press
6- Glencoe, IL, New York.
-Mead, Herbert (1934), Mind, Self, and Society, University of Chicago Press.6
7- Motak, Dominika (2012) Georg Simmels Concept Religion and Religiosity, Studia Relioiglogica, Vol. 45, no2.
8- Parsons, Talcott (1951) The Social System, Glencoe,IL: free press.8
9- Parsons, Talcott (1954) Essays in Sociological Theory, edited by A.G.M. Stoker, free press.
10-Reynolds, P.D, (1971), A primer in Theory Construction, Bobbs-Merrill, Indianapolis.
11-Simmel, Georg (1905) A Contribution to the Sociology of Religion, American journal of Sociology, Vol. 11, no.3.
12-Simmel, Georg (1997) Essays on Religion, yale Universit press, New Haven.12
13-Tastan, A & Aksoy, M, (2020) Georg Simmel'in Sosyolojik ve Psikolojik Bakis,Ac,ilarindan Din ve Dindarlik Anlayisi, Bilimname Turkiye.
https:// doi. Org /10.28949/ bilimname. 682876